الـــذين يدافعـــون عن الديمقـــراطية

المؤمنـــون بالفكـــرة الديموقـــراطية ، يعتبرونها افضل الانظمة لحكم الشعوب ذلك أن الديموقراطية تفترض أن الشعب كله هو صـــاحب القرار ، فان تعذر الاجمـــاع الشعبى على أمر من الامـــور فان القرار للاغلبية ، باعتبارها أقـــرب تعبير - أو بديل - للاجماع الشعبى .

بقلم :
أحمـــد طلعت
عضو الامانة العـــامة لحزب الاحرار

ومن خلال هذا التعريف المبسط تتفرع عدة تفاصيل وضمانات منهـا سيادة القانون ، وحـــرية الرأى والتعبير .. الخ ..

وبالرغم من أن الديمقراطية قـد اثبتت على مر العصور انها أصلح النظم السياسية وأكثرها تحقيقـا لمصالح الشعوب ، الا انهـــا قـد تعرضت - على مر العصور ايضا - وفى انحاء كثيرة من العـــالم الى ضربات مروعة قضـــت عليهـــا ، واقامت على انقاضها انظمـــه فردية او تسلطية اذلت الشعوب ، وسلبت ارادتها ، وفرضت عليها ما لاترتضيه بارادتها الحرة ، سواء كانت هـــذه الارادة اجماعا شعبيا أو تعبيرا عن رأى الاغلبية .

وقد دعت هذه الظاهرة - ظاهرة سقوط بعض الانظمة الديمقراطية - الى دراسة متعمقة تبحث عن اسباب سقوط انظمة يكون القـــرار فيهـــا للشعب لتحل محلها انظمـــة تفرض على الشعوب ارادة فرد واحـــد أو حفنة قليلة من الافراد .. !

وثارت تساؤلات : هل الانظمـــة الديموقراطية لا تملك اسباب بقائها واستمرارها ، ام انها تحمـــل فى طياتها من العيوب ما يجعلهـــا لا تستطيع الصـــمود أمام ضربات اعدائها .. ؟

ولقد ثبت ان اصدقاء الديمقراطيه يساهمون فى ســـقوطها الى جانب أعدائها من حيث يتصـــورون أنهم يدافعون عنها .. فاذا كنا نفهم أن أعداء الديمقراطية يوجهـــون اليها الضربات من أجل اقامة انظمه فرديه أو شـــمولية ، فكيف نفسر دور الاصدقاء فى تحقيق نفس الهدف ، أو المساهمة فى تحقيقه على الاقل ؟

بعض انصـــار الديمقوقراطية يدافعون عنها باعتبارها شيئا نظريا مجردا ، ويتصـــورون ان ما تحمله من حـــريات هو شيء مطلق يجب الدفاع عنه بصرف النظر عن نتائجه أو حدوده ، الامر الذى جعلها تبدو فى صورة نظام مسالم لا يقدر على مواجهة أعدائه أو التصدى لهم ؟ ثم جعل اعـــداء الديموقراطيـــة - بالتالى - يحتمـــون بها وهم يوجهون اليها أعنف الضربات !!

والعبرة ليست فى الايمان بنظام معين ، ولكن العبرة فى القدرة على اعطاء هذا النظام مقومات الصـــمود والاستمرار خصوصا اذا كان هـــذا النظام فى مجال الاختبار الحقيقى لقدرته على البقاء .

ومن أجل ذلك جاءت فـكرة أن تكون للديموقراطية مخالب وانياب ، قادرة على حمايتها من أعدائهـــا ، واعطائها مقومات البقاء والاستمرار .

واذا كان البعض يحاول ان يصور المخالب والانياب على انها اسـلوب للقهر والتسلط ، فان هذا البعض اما أن يكون قد فهم الامر على غير المراد منه ، أو انه يريد بسذاجة - او بســـوء قصد - ان يجـــرد الديموقراطيه من اسـباب بقائهـــا واستمرارها .. !!

فالمخالب والانياب هنا ، معناها القدرة على مواجهة الاعداء والتصدى لهم دفاعا عن الحق والعـــدل ، وليس معناها باى مفهوم الشراسة أو التسلط حتى الاديان السماوية وهى الحق والعدل بغير نزاع - مطلوب من المؤمنين بهـــا أن تكون لديهم القوة التى يرهبون بها عدو الله وعدوهم .

على أن القوة اللازمة للدفاع من الديموقراطية لا ينبغى بالضرورة ان تكون قوة مادية أو مسلحة ، ولكنها فى المقام الاول قوة الايمـــان بالفكرة والقدرة على الفاعلية والمباداة فى مواجهة خصومها .

ومن اخطر ما يهدد الديموقراطية هو ما يتصوره بعض انصـــارها من انها نظام مسالم يدير خده الايسر لكل من يصفعه على خده الايمن !!

ان المباداة بالتصدى لخصـــوم الديموقراطيـــة ، وبالاســـاليب الديموقراطية - ومنها ســـيادة القـــانون - هو واجب لا ينبغى ان يؤخر القيـــام به فهم خاطىء او مجادلات نظرية .

فاذا لم يملك انصار الديمقراطية القدرة على المباداة ، فانهم يعرضون الديموقراطية ذاتها للسقوط امام ضربات أعدائها ، ويكونون قد ساهموا معهم بذلك فى سقوطها .

ولا يشفع للبعض - عندئذ - انهم كانوا من أصحاب النوايا الحسنة ، كما لا يشـــفع لهم انهم كانوا من قصـــار النظر .. أو الســـذج والعاجزين ..